مجلة جامعة صبراتة العلمية
Sabratha University Scientific Journal

مجلة علمية نصف سنوية محكمة متخصصة في العلوم الإنسانية

تصدرها جامعة صبراتة بشكل الكتروني

قراءة جوهرية وصفية لتماثل الشعائر الدينية وخصائص المجتمع بين تونس والجزائر من خلال أدب الرحالة أنموذجًا

A Fundamental and Descriptive Reading of the Similarity of Religious Rites and the Characteristics of Society between Tunisia and Algeria through the Literature of Travelers as A Model

فايزة بن مبارك
دكتورة متخصصة في علم الاجتماع
أستاذ ومحاضر بجامعة باتنة1، الجزائر
Fayza.benmebarek@univ-batna.dz

سالم محمد علي الهريشي
أستاذ علم الاجتماع
جامعة صبراتة، ليبيا
Salem.elhrishi@sabu.edu.ly

رقم الإيداع القانوني بدار الكتب الوطنية:
2017-139

الترقيم الدولي:
ISSN (print) 2522 - 6460
ISSN (Online) 2707 - 6555

الموقع الألكتروني للمجلة:
https://jhs.sabu.edu.ly

قراءة جوهرية وصفية لتماثل الشعائر الدينية وخصائص المجتمع بين تونس والجزائر من خلال أدب الرحالة أنموذجًا

A Fundamental and Descriptive Reading of the Similarity of Religious Rites and the Characteristics of Society between Tunisia and Algeria through the Literature of Travelers as A Model

فايزة بن مبارك
دكتورة متخصصة في علم الاجتماع
أستاذ ومحاضر بجامعة باتنة1، الجزائر
Fayza.benmebarek@univ-batna.dz

سالم محمد علي الهريشي
أستاذ علم الاجتماع
جامعة صبراتة، ليبيا
Salem.elhrishi@sabu.edu.ly

ملخص:

تعد هذه الدراسة مثالًا مجسدًا لدور البعد الإقليمي في نسج نمط التقارب بين الشعوب لا سيما في مجالاتها الاجتماعية والدينية؛ إذ أكدت الورقة البحثية اعتبار العقيدة والدين المحركان الأساسيان لبنيان كل مجتمع ودولة على مر العصور، حيث ارتكزت الكتابات، تاريخية كانت أو أدبية، على إعطاء الصورة المقربة والوصفية لكل دولة، والتي ارتكزت على الخصائص المشتركة في مجتمعها والمشكِّلة لهويتها التي تمثلت في الموروث الشعبي، ومن بين المواضيع التي سُلط عليها الضوء من خلال الورقة البحثية استخلاص تحليلي للمجتمعين الجزائري والتونسي؛ واللذان ارتكزا في مقوماتهما على الدين بتعاليمه، وهذا ما كون ثقافة وبعدًا إسلاميًّا للبلدان المغاربية خاصة الجزائر وتونس، وكان الرحالة من بين الذين أسدلوا الستار بتتبع رحلات الحج التي كشفت البعد الديني المشترك لهذه الدول، بيد أنّ هذا التفاعل والتماثل بين الشعبين الجزائري والتونسي جسد الصفات المشبعة بثقافة عميقة متأصلة؛ امتازت بعاداتٍ وتقاليدَ عديدةٍ، لتشمل الجوانب الاجتماعية والثقافية والعمرانية والدينية، فالرحلات الدينية للعلم والحج أفرزت التشابه والتشابك بين العادات والتقاليد الاجتماعية والثقافية في المجتمعين وأهمها اللباس التقليدي في المناسبات الاجتماعية بين البلدين الذي صبغ بميزة الطابعين الإسلامي والعربي الأصيل؛ وهو يختزل الهوية الحضارية المتميزة بثرائها وانفتاحها الحضاري، ومن هذا الطرح نورد الإشكالية الآتية: ما مدى توافق الخصائص الدينية والاجتماعية بين تونس والجزائر وفقًا لما طرحته الكتابات التاريخية الأدبية، وما دونه الرحالة؟

الكلمات المفتاحية: العادات التونسية، طقوس، ولباس عربي، نساء جزائريات، عادات دينية، الرحلات الدينية العلمية.

A Fundamental and Descriptive Reading of the Similarity of Religious Rites and the Characteristics of Society between Tunisia and Algeria through the Literature of Travelers as A Model

Abstract:

This study is considered an embodied example of the role of the regional dimension in weaving a pattern of rapprochement between peoples, especially in their social and religious fields, as the research paper confirmed that faith and religion are the main engines of the structure of every society and state throughout the ages, where historical or literary writings were based on giving the close-up and descriptive image of each country, which was based on the common characteristics in its society and the problem of its identity, which was

represented in the popular heritage, and among the topics highlighted through the research paper Extracting the analyses of the Algerian and Tunisian societies, which were based in their components on religion with its teachings, and this formed an Islamic culture and dimension for the Maghreb countries, especially Algeria and Tunisia, and the travelers were among those who brought down the curtain by tracking the pilgrimages that revealed the common religious dimension of these countries, but this interaction and similarity between the Algerian and Tunisian peoples embodied the qualities saturated with a deep and inherent culture, characterized by many customs and traditions to include social, cultural, urban and religious aspects, as the religious trips to science and pilgrimage produced similarities and entanglements. The social and cultural customs and traditions in the two societies, the most important of which are traditional dress, social events between the two countries, which are characterized by the authentic Arab Islamic character, and it reduces the civilizational identity distinguished by its richness and openness of civilization, and from this proposition we cite the following problem: To what extent are the religious and social characteristics compatible between Tunisia and Algeria, according to what was put forward in literary historical writings and what travelers wrote?

Keywords: Tunisian customs, rituals, Arab dress, Algerian women, Religious customs, scientific religious trips.

مقدمة:

تمثل الرحلات الإسلامية بابًا من أبواب تحصيل العلم والتبصر لثقافات البلدان الإسلامية لا سيما بعد تدوين هذه الملاحظات الاستكشافية عن حدود المنطقة، وخصائص شعبها وإعطائها وصفًا، حتى يزاح الإبهام عنها، ويستطاع التعرف عليها لدى السائلين والباحثين على مختلف الأزمنة، فهي تعد رصد تراث مادي وأدبي مكتسب من خلال ما دون أو خلف، ولذلك اتصفت هذه بتسميتها بالرحلات العلمية الاسلامية، وكذلك الرحلات الدينية التي تجمع بين العلم والتفقه، وهذا ما يكّون لنا أدب الرحلة من خلال ما دونه الرحالة في رحلاتهم، حيث يعد الحج منتهى المسلمين المتبصرين للوصول للخشوع لله، وقد أسهم رحالة من تونس والجزائر ومغاربة ومشارقة في رصد طقوس الحجاج في أداء الفريضة، وكذلك وصف المجتمعات في هذه الرحلات.

إشكالية الدراسة:

ومن المعطيات السابقة ارتأينا أن طرح الإشكالية الآتية:

بمَّ اتسمت عادات الحج في المجتمع في تونس والجزائر؟ وهل مثلت تراثًا أدبيًّا قابلًا للتحليل من خلال أدب الرحالة؟

أهداف الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في ربط التاريخ لهويات الأمم المتقاربة من حيث الخصائص المشتركة، والتي يجمعها الدين والعادات والتقاليد وكل ذلك يندرج تحت الموروث الثقافي لهذه الشعوب؛ وقد اتخذنا من

تونس والجزائر أنموذجين باعتبار القرابة الحدودية والسمات المشتركة من حيث المرجعية التاريخية للمنطقتين، وتشابه الظروف التي مرت على كلتا الدولتين، وهذا يعطي طابعًا مشتركًا وسماتٍ متشابهةً لا سيما في العقيدة والمناسبات الدينية.

إذ كشفت كتب الرحالة عن تفاصيل تتعلق بمدى تشابه المناسك الدينية بين تونس والجزائر، لا سيما مناسك الحج والمجتمع، وأعطت هذه الأخيرة وصفًا دقيقًا بروايات موثقة على أن الفاصل الحدودي بين البلدين لم يمنع من تقارب البنية الثقافية لمجتمعات البلدين وتماثلهم في العرف والدين.

أولًا- الرحالة من وإلى بلاد تونس لوصف الحج والمجتمع في تونس:

1- أدب الرحالة الجزائريين في وصفهم للحج:

هكذا نرى أن المسلمين في العصور الوسطى أتيح لهم القيام بكثير من الرحلات[1] والأسفار. والحق أن ما كتبه المؤلفون المسلمون فيما بين القرنين الثالث والتاسع بعد الهجرة (التاسع والخامس عشر بعد الميلاد) عن الرحلات[2] كثير جدًّا، ولكن المعروف أن الرحالة لم يكتبوا أخبار رحلاتهم[3] في مؤلفات

1 تمتعت مكة قبل الإسلام بمكانة مرموقة لدى العرب، لأنها كانت مركزًا تجاريًّا ودينيًّا مهمًّا في الجزيرة العربية، إليها يحجون وفيها تنتهي تجارتهم وتروج، وفضلًا عن ذلك فقد كانت مركزًا من مراكز التسابق الفكري بين نوابغ العصر من الشعراء والخطباء والبلغاء، وبعد مجيء الإسلام أصبح الحج فريضة من الفرائض الرئيسة للمستطيعين إليه سبيلًا. قال تعالى: "... ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلًا"، وكان الحج من أهم العوامل التي دفعت المسلمين من كل فج عميق، وعلى كل ضامر إلى الرحلة والانتقال لأداء الركن الخامس من أركان الإسلام. فالحج كان ولا يزال رحلة يتشوق إلى أدائها المسلمون كافة وليس محصورًا على علمائهم، فموسم الحج يُعد استقطابًا لكل علماء العصر ومجمعًا عامًّا للمسلمين كافة من أرجاء المعمورة، إذ لا يوجد في تاريخ الإنسانية موقع جغرافي حج إليه ملايين البشر في كل جيل مثل الجزيرة العربية وتطلعاتها الروحية مثل الحجاز. للمزيد انظر: حسين ابراهيم محمد مصطفى الجبراني، العلوم الشرعية واللغوية، ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، 2017، ص63.

2 لقد حظيت مادة "رحل" بشرح وافٍ في العديد من المعاجم العربية. فقد جاء في لسان العرب: الترحيل والرحل بمعنى الأشخاص والإزعاج، يقال: رحل الرجل إذا سار، وأرحلته أنا، ورجل رحول وقوم رحل: أي يرتحلون كثيرًا، ورجل رحال: عالم بذلك مجيد له... فالرحلة هنا بمعنى السير، وورد لفظ الرحلة في موضع آخر بمعني الانتقال من مكان إلى مكان آخر "والترحل والارتحال: الانتقال، وهو الرحلة والرحلة. والرحلة اسم للارتحال للمسير"، ومن معاني الرحلة التي وردت كذلك في لسان العرب، الوجهة أو المقصد والرحلة بالضم الوجه الذي تأخذ فيه وتريده.... كما تعني السفرة الواحدة «إن لفظ رحلة يطلق على عدة معانٍ، فقد جاءت بمعنى السير والانتقال والوجهة أو المقصد الذي يراد السفر إليه. وبمعنى دنو المكان المراد الوصول إليه. أو اقتراب وقت الرحيل. ولهذه المعاني كلها كان لفظ رحلة يطلق على من انتقل من مكان لآخر، وعنه أخذ لفظ رحال: وهو الشخص المتنقل من مكان لآخر، فمشتقات مادة "رحل" كثيرة ومتعددة. وتدل كلها على الحركة. الرحلة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة: لفظ رحلة في القرآن الكريم ذكرت مرة واحدة في سورة قريش في قوله جل وعلا: «لإيلاف قريش (1) إيلافهم رحلة الشتاء والصيف (2). فليعبدوا رب هذا البيت (3) الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (4)». ففي هذه السورة ارتبطت الرحلة بالتجارة، والتي كان يقوم بها أهل مكة صيفًا إلى اليمن وشتاءً إلى الشام. كما ورد لفظ "رحل" بمعنى البعير الراحلة، في قوله جل وعلا: «فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه، ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون» (2) إذا ورد لفظ رحلة في القرآن الكريم مرة واحدة كما سبق، إلا أن المفردات الدالة على الحركة والانتقال كثيرة ومتعددة تذكر منها: الظعن، الهجرة، السفر، الإسراء، الحج. أما اصطلاحًا: تعددت مفاهيم الرحلة في الاصطلاح، فقد حددها الإمام الغزالي: بأنها نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة، جاعلًا الرحلة عبارة عن احتكاك. للمزيد انظر: شرابي يسمينة، الموروث الثقافي في أدب الرحلة الجزائري "نماذج من رحلات القرن العشرين"، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في اللغة، والأديب العربي جامعة البويرة، الجزائر، 2013، ص 23، 24، 25.

3 لقد حظيت مادة "رحل" بشرح وافٍ في العديد من المعاجم العربية. فقد جاء في لسان العرب: الترحيل والرحل بمعنى الأشخاص والإزعاج، يقال: رحل الرجل إذا سار، وأرحلته أنا، ورجل رحول وقوم رحل: أي يرتحلون كثيرًا، ورجل رحال: عالم بذلك مجيد له... فالرحلة هنا بمعنى السير، وورد لفظ الرحلة في موضع آخر بمعني الانتقال من مكان إلى مكان آخر "والترحل والارتحال: الانتقال، وهو الرحلة والرحلة. والرحلة اسم للارتحال للمسير"، ومن معاني الرحلة التي وردت كذلك في لسان العرب، الوجهة أو المقصد والرحلة بالضم الوجه الذي تأخذ فيه وتريده.... كما تعني السفرة الواحدة «إن لفظ رحلة يطلق على عدة معانٍ، فقد جاءت بمعنى السير والانتقال والوجهة أو المقصد الذي يراد السفر إليه. وبمعنى دنو المكان المراد الوصول إليه. أو اقتراب وقت الرحيل. ولهذه المعاني كلها كان لفظ رحلة يطلق على من انتقل من مكان لآخر، وعنه أخذ لفظ رحال: وهو الشخص المتنقل من مكان لآخر، فمشتقات مادة "رحل" كثيرة ومتعددة. وتدل كلها على الحركة. الرحلة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة: لفظ رحلة في القرآن الكريم ذكرت مرة واحدة في سورة قريش في قوله جل وعلا: «لإيلاف قريش (1) إيلافهم رحلة الشتاء والصيف (2). فليعبدوا رب هذا البيت (3) الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (4)». ففي هذه السورة ارتبطت الرحلة بالتجارة، والتي كان يقوم بها أهل مكة صيفًا إلى اليمن وشتاءً إلى الشام. كما ورد لفظ "رحل" بمعنى البعير الراحلة، في قوله جل وعلا: «فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه، ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون» (2) إذا ورد لفظ رحلة في القرآن الكريم مرة واحدة كما سبق، إلا أن المفردات الدالة على الحركة والانتقال كثيرة ومتعددة تذكر منها: الظعن، الهجرة، السفر، الإسراء، الحج. أما اصطلاحًا: تعددت مفاهيم الرحلة في الاصطلاح، فقد

قائمة بذاتها إلا نادرًا. أما معظمهم فقد أدمجوا حديث تلك الرحلات فيما ألفوه من كتب التاريخ أو تقويم البلدان. كما أشار بعض المؤلفين إلى رحلات قام بها غيرهم؟ ولم يصل إلينا شيء عنها من تأليف أصحابها أنفسهم. وفضلًا عن هذا كله فثمة رحلات قام بها الرحالة ضاعت أخبارها أو لم يدونها أصحابها.[4]

- **رحلة ابن جبير:**

شاعت الرحلات.[5] بين المسلمين إلى أن أصبحت فنًّا قائمًا بذاته، فانتشار الفتوحات الإسلامية وربطها برغبة الحكام في معرفة البلدان التابعة لهم، ويعد أبو بكر العروي المتوفي سنة 611هـ /1215م أشهر الرحالة المختصين، ودون تنقلاته تحت عنوان (الإشارات إلى معرفة الزيارات)، الذي يعد دليلًا لزيارة الأضرحة والمقامات الإسلامية. حيت دخل الأدباء بخيالهم في الرحلة لتمرير أفكار وقضايا أو طرح ظواهر، ويعد ابن جبير صاحب أول رحالة دوّن رجلاته بطريقة منهجية، لذا لا يمكن أن يعلن عن رحلته كرحلة علمية، غير أن ابن رشيد السبتي نحا برحلته عن نهج ابن جبير، وحولها إلى ديوان علم، حتى امتزجت رحلته في الحضارة الإسلامية بالفهرسة أو البرامج، فكانت من أوسع البرامج العلمية، لاحتوائها على تراجم وافية وأسانيد مضبوطة، لأنه أثناء خروجه للحج زار الاسكندرية والقاهرة عام 684هـ/1285م فكان أول ما قرأ في رحلته باب النصرة في الفقه لأبي الحسن اللحمي المالكي بمدينة صفاقس. [6]ورحلة ابن جابر الوادي آشي:

هي رحلة علمية، لأنه أكثر فيها من الأحاديث والرواية والتقاء العلماء، مما جعلها سجلًا علميًّا يحتوي أدبيات العلماء، مما جعلها عملًا علميًّا يحتوي أدبيات وتراجم علماء وأسماء كتب مشهورة، لم يُعرف بعضها إلا من خلال رحلته، كما تجول في معظم المراكز الإسلامية، وأخذ عن علمائها، وعاد للتدريس في تونس، حملت بالمناقشات وأجمع فيها بين علماء تونس والمغرب، أما رحلة خير الدين التونسي: فهي واحدة من المحاولات الإصلاحية الواعية للوطن العربي والإسلامي[7] الهادفة إلى تنبيه الغافلين وإيقاظ النائمين من العوام أو الخواص، فهي بمثابة وعي حاد باتجاه المشرق العربي لأداء مناسك

حددها الإمام الغزالي: بأنها نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة، جاعلًا الرحلة عبارة عن احتكاك. للمزيد انظر: شرابي يسمينة، الموروث الثقافي في أدب الرحلة الجزائري "نماذج من رحلات القرن العشرين"، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في اللغة، والأديب العربي جامعة البويرة، الجزائر، 2013، ص 23، 24، 25.

4 كي محمد حسن مرجع سابق، ص 12.

5 مارس العرب الرحلات قبل ظهور الإسلام لأغراض تجارية، ولكن بعد ظهوره مارسوها لأعراض جديدة كالهجرة بالدين، أو الحج، أو طلب العلم كرحلة الإسراء والمعراج، ورحلة أبي ذر الغفاري لفهم تعاليم الإسلام ، ورحلة مصعب بن عمير إلى المدينة مع وفد من العقبة ليقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ولم تنقطع الرحلات الإسلامية عقب وفات الرسول صلى الله علية وسلم، وبخاصة رحلات مراجعة الأحاديث النبوية خشية نسيانها وحفاظاً عليها وضبطها وحاجتها للوصف، وتضييق وتسهيل مهمة الولاة ظهرت الرحلات الجغرافية، التي قدمت وصفًا دقيقًا، لاعتمادها على المشاهدة والملاحظة. للمزيد انظر: أسامة السيد محمود وآخرون، الاتجاهات الحديثة في المكتبات والمعلومات ع35، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، جويلية 2018، ص189.

6 أسامة السيد محمود وآخرون، مرجع سابق، ص، 192 ،193 ،194.

7 فأدب الرحلة ليس بحثاً في التاريخ ولا وصفاً جغرافياً. كما أنه ليس قصة قصيرة، أو رواية، أو قصيدة شعر، وإنما هو هذا وذاك، ومن ثم يكتسب خصائصه المتميزة وطعمه العذب وقدرته في الوقت نفسه على تلبية مطالب المؤرخين والجغرافيين والأدباء الذين يطمحون لمعاينة الوقائع. للمزيد انظر: عماد الدين خليل، من أدب الرحلات، دار ابن كثير، دمشق، 2005، ص06.

الحج، [8]وكانت رحلة ابن بطوطة: في القرن الثامن الهجري، وقطع الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب ومن ناحية الحجاز. وجاءت رحلته "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" سجلًا حافلًا عن أوضاع المسلمين، فقد شاهد الكثير وعرف كيف يصور ما شاهده بدقة وبساطة[9]. لم تكن رحلة سهلة بل صعبة[10]. أيضًا السنوسي محمد بن عثمان بن محمد (1318/ 1900): ولد بتونس، وأصل عائلته من الكاف، ونشأ في بيت علم، فكان جده وأبوه قاضيين، ودرس السنوسي في جامع الزيتونة، حيث تتلمذ على. أعيان المشايخ. [11] وقد بين العلامة ابن خلدون: أن للرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم،[12] وقد بين العلامة ابن خلدون: أن الرحلة في طلب العلوم[13] ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم، [14]أما رحلة أبي محمد التجاني: التيجاني عبد الله بن محمد بن أحمد أبو محمد عاش بين نهاية القرن 13\7 والنصف الأول من القرن 8/14، ولد بتونس وتربي في حجر أبيه العالم، وقد أخبر أنه أخذ عنه دروس التفسير والحديث وأنواع العلوم، وتولى وظيفة ديوان الإنشاء، وقام برحلة في منطقة الساحل الشرقي التونسي ومنطقة طرابلس، وهي موضوع رحلته التي سجلها والتي تحمل اسمه رحلة التجاني وللمؤلف مصنفات تربو على الثمانية منها أداء اللازم، والوفاء، وشحنة العروس، ونزهة النفوس، وتقييد على صحيح مسلم،[15] وقد خرج من تونس لأداء فريضة الحج عام 706هـ.[16]

---

8 شرابي يسمينة، مرجع سابق، ص ص48، 49.

9 نوال عبد الرحمان الشوايكة، مرجع سابق، ص66.

10 أما رحلة ابن بطوطة لأنها رحلة علمية بقدر ما كانت جغرافية، بالرغم من إنما كانت لأداء الحج، لأنه كان رحالة بالدرجة الأولى، وقد قام بالسفر والتجوال في أرجاء العالم مع إيراده أسماء العلماء الذين قابلهم إجلالًا لقدرهم، وبعده بنحو قرنين انتعشت الرحلة الجغرافية من جديد على يد الحسن الوزان الفاسي المتوفى بتونس عام 957 هـ، حيث قدم للقارئ في رحلته معطيات جغرافية وتاريخية واجتماعية مستنبطًا معلوماته بالمشاهدة والسماع والتواصل مع الآخرين. وكانت الرحلات الإسلامية متكاملة منذ بدايتها، متوفر بها جميع الأسباب والوسائل، وأفرزت إنتاجًا فكريًّا متميزًا، كان أهمه وأرفعه ما قام أصحابه بتأليفه، كما كانت الحواضر الإسلامية مقصد الرحّالة بغية التزود بالعلم، فوفدوا إليها من كل مكان، للقاء علماء آخرين من أماكن أخرى.. للمزيد انظر: أسامة السيد محمود وآخرون، مرجع سابق، ص 193، 194.

11 إسماعيل سامعي، علم التاريخ: دراسة في المناهج والمصادر، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان 2016، ص302.

12 إن الرحلات الحجازية المغاربية، فقد كان المغاربة باتفاق أكثر المسلمين اتجاهًا نحو الرحلة الحجازية، والرغبة في المغامرة والاطلاع والرحلة للحج وطلب العلم، وأداء فريضة الحج، وزيارة بيت المقدس. وللحركة الفكرية والثقافية والدينية في بلاد الأندلس والغرب الإسلامي وحواضر العلم وملتقى العلماء إلى الحجاز. لقد صور الرحالة الحاج المغاربي في رحلاته الحجازية فرحة وصول المشتاقين إلى مكة والمدينة فسبحان من شرف الكعبة البيت الحرام، وقلوب الرحالة المغاربة الأعلام، إليها تهفو بالإجلال والإعظام، فالله قد اصطفاها وحلاها وجلاها وحماها، لمن حام حولها، وجعلها حرمًا آمنًا لمن دخل إليها. وهكذا جاءت عناوين وأسماء الرحلات الحجازية المغاربية في تصوير المناسك ممن شدوا الرحال إلى بلد الحرام شخصيات وعلماء نجد فيهم الرحالة. للمزيد انظر: زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، 2008، ص، ص70، 80.

13 أبو بكر الخطيب البغدادي، الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي تح، نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت،1975، ص24.

14 هذه الرحلات الحجازية المغاربية، سوف تضيف بعض الإضافات للدراسات التاريخية والاجتماعية والثقافية والدينية، توضح جوانب لم يكن قد أتيح لها مثل هذا الإيضاح. فإلى جانب ما توفرت فيها من تراجم وافية لبعض الرجال الذين كانوا بمنزلة القاصدين من أبناء جيلهم، فهي سجل لأحداث العصر: السياسية، والثقافية، والاجتماعية، فهي تسجل المبادلات الثقافية بين المشرق والمغرب من جهة، وبين دول الغرب الإسلامي المغرب الكبير (الأدنى، والأوسط، والأقصى)، وبلاد الأندلس، والمشرق الإسلامي؛ والعلاقات بين الموحدين والزيانيين والمرينيين، والحفصيين، والعلاقات مع الأتراك العثمانيين، ومع الإسبان والفرنسيين، والإنجليز، والعلاقات بين العرب والغرب، وبين الشرق والغرب. كما أن الرحلة الحجازية توثيق لحال الثقافة الإسلامية (فقه، وحديث، وتوحيد). وهي تسجل عصر المناظرات والفتاوي والنوازل، على طول عشرة قرون. وكذا عصر الرحلات الحجازية المغاربية (القرن الثامن)، ففي هذا العصر ظهر العديد من الرحالة، من مثل: ابن رشيد، وابن بطوطة، والتجيبي، والوادي آشي، وأحمد البلوي، وابن خلدون، ثم يأتي بعدهم حامد الغرناطي، والزياني. للمزيد انظر: حفناوي بعلي، الرحلات الحجازية المغاربية الأعلام في البلد الحرام دراسة نقدية توثيقية ثقافية، دار اليازوري، عمان، 2018، ص11.

15 سامعي إسماعيل، مرجع سابق، ص292.

16 وتمتاز رحلته بأهمية كبرى وذلك بتزويدها لنا بمعلومات وافية عن جميع المناطق التي زارها وعن الأصقاع المجاورة لها، وهي تتناول مسائل الجغرافيا، ومسائل التاريخ الطبيعي، حيث تعرض لأخبار المدن والقرى والسكان وعاداتهم، كما عرّف التجاني بالفقهاء والأدباء الذين لقيهم في أثناء تجواله في البلاد التونسية وطرابلس، وقد قدّم للرحالة

2- وصف المجتمع في تونس قبل الاحتلال الفرنسي وبعده:

شعب تونس متشبعٌ بثقافة عميقة متأصلة امتازت بعادات وتقاليد عديدة شملت الجوانب الاجتماعية والثقافية والعمرانية والدينية، ففي الجانب الديني تتعدد المناسبات الدينية، ومن أهمها شهر رمضان المبارك الذي يطلق عليه التونسي باللهجة المحلية "سيدي رمضان" وبحلوله تزدان البلاد بحلة جميلة فتتزيّن دور العبادة بالأنوار وكذلك المراكز والمحلات التجارية والمقاهي والشوارع. ينكب التونسي في الشهر المبارك على تلبية حاجاته الروحية، فترى الناس بعد الانتهاء من إفطارهم يتوجهون إلى المساجد للصلاة والاستماع إلى الدروس الدينية، وتنشط حركة ثقافية ترشح بالبعد الصوفي[17] كالموسيقى الروحية. انمحى أثر الأتراك من تونس، وقد تغلب المنظر العربي على كل هذه العناصر، أما لغة السكان فهي العربية، وتعتبر اللهجة التونسية العامية من أقرب اللهجات للعربية الفصحى،[18] وتراجع الاهتمام بالجوانب القيميّة في المجتمع التّونسي بسبب فقدان المؤسسات الدّينية، وعلى رأسها جامع الزيتونة، لدورها في الحفاظ على القيم الاجتماعية والأخلاقيّة للإنسان التونسي عمومًا. لباس التّونسيين يلبس بعض التّونسيين، وخصوصًا منهم موظفو الحكومة الملابس الإفرنجية والطرابيش المغربية ذات الأزرار الطويلة، وقد لاحظ ذلك المؤلف عند السّيد محمد البشير صفر، والسّيد حسن حسني عبد الوهاب، والسّيد علي عبد الوهاب. ويلبس البعض الآخر الملابس العربية القصيرة ومن فوقها برنس أو عباءة مسدودة من الأمام[19]. كانت حالة التونسيين المعيشية أحسن بكثير من حالة إخوانهم الجزائريين حسب ما يذكر الكاتب عبد المجيد كامل، ويدل على ذلك كثرة جمعياتهم وشركاتهم ومدارسهم ومنتدياتهم وجرائدهم وغير ذلك مما لا أثر له في بلاد الجزائر. ويوجد من بين التونسيين كثير من موظفي الحكومة وكبار رجالها، وكذلك منهم

حسن حسني عبد الوهاب، وطبعت في المطبعة الرسمية بتونس سنة 1958م، للمزيد انظر: نوال عبد الرحمان الشوايكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، 2008، ص66.

17 وهي موسيقى المدائح والأذكار وتشتهر المائدة التونسية خلال الشهر المبارك بحضور أكلات معينة منها "البريك" و"الحساء" بأنواعه و"البسيسة" عند السّحور. كما يحتفل التونسيون بعيد الفطر في احتفالات ذات طابع روحي، حيث الاستغراق في العبادة، وزيارة الأقارب، ومساعدة الفقراء والمحتاجين، ويهرع الناس إلى دور العبادة للاستماع إلى سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وحفلات الزواج، حيث لا ينتهي الاحتفال بالزواج التونسي في يوم واحد، وإنما غالبا يمتد إلى سبعة أيام ويكون مسبوقا بـ"الخطبة"، ولأهمية اللباس التقليدي في تونس يحتفل به في 16 مارس من كل عام، فيرتديه الموظفون في مقرات عملهم والتلاميذ في مدارسهم، وعلى الرغم من اختلاف أنواع اللباس التونسي وتمايز أشكاله بين مناطق البلاد، فإنه يتكون في الغالب للمرأة من الجبة بأنواعها "القفطان الموشي بالفضة والذهب والسفساري والملية والحولي والحرام وقطع الحلي كالخلخال والريحانة والفرد والخواتم" ومن الجبة "البرنس والقسابتت والكشطة والشاشية والبلغة للرجل.. للمزيد انظر: "عادات وتقاليد اجتماعية وإنسانية تشكل الكيان الحضاري والثقافي للشعب التونسي"، مقال من جريدة الوطن متاحة الكترونيا على الرابط: https://alwatan.om/details/191512 الساعة: 12:30 التاريخ 04/14 /2020.

18 ويدين جميع السكان العرب بالدين الإسلامي ويتبع معظمهم المذهب المالكي، وقد انتشرت الحياة الحضرية في تونس منذ عهد قديم، وهي في تقدم مستمر، ويبلغ عدد سكان المدن بالنسبة لجميع السكان 18 ٪، وتكثر في تونس الطبقة المتوسطة في المدن والقرى، إلا أن الفقر الذي عم طبقات الشعب من جراء سياسة فرنسا الاستعمارية قد أضر بهذه الطبقة أكثر من غيرها، وانتشرت الطبقة الفقيرة في البوادي وعددها يتزايد كل سنة. ولا توجد القبائل الرحل إلا في المنطقة الوسطى للقطر التونسي، على أنهم راحلون إلى مناطق الشمال إلا في مواسم معينة من سنوات القحط والمجاعة، ولو اعتنت السلطة في تونس بمسائل الري لاستقرت القبائل نهائيًا في هذه المناطق الشاسعة. للمزيد انظر: الحبيب تامر، هذه تونس، مطبعة الرسالة مكتبة المغرب العربي، تونس، د.ت، د. ن.، ص05.

19 حاربت فرنسا اللغة العربية والفكر الإسلامي وفرضت تعليم اللغة الفرنسية، كما شجعت على التنصير، وقامت بقطع المعدات عن المدارس الإسلامية، حتى ضعفت، وقُضي على معظمها، إلا أن جامعة الزيتونة –ظلت تصارع الأحداث، وتناضل من أجل البقاء. وقد فرضت فرنسا الأحكام العرفية أكثر من عشرين عاماً، وأعطت الحظوة لكل من يظهر التعاطف مع فرنسا، ولكنْ التونسيون قاطعوا كل من أقدم على حمل الجنسية الفرنسية وعدوه مارقًا من الإسلام. ورفضت الجماهير دفن من يموت من هؤلاء في مقابر المسلمين. وقد ظهر حديثا في تونس صحوة إسلامية بين الشباب. للمزيد انظر: جمال عبد الهادي محمود، المجتمع الاسلامي المعاصر بإفريقيا، القاهرة، 1995، ص05.

الطبيب والمحامي والتاجر والصانع وغيرهم.[20] قد توالت على الأراضي التونسية حضارات متعدّدة بربرية وفينيقية ورومانية وعربية إسلامية، وما زالت لهذه الحضارات بقايا عمرانية وبصمات ثقافية.[21] أول السجلات التاريخية الموجودة تُشير إلى أن المناطق الداخلية التونسية كانت مأهولة قديمًا بقبائل بربرية، أمّا الساحل التونسي فقد نشأت فيه حضارة قديمة تمثلت في مدينة قرطاج، التي تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد، والتي أسسها قادة فينيقيون جاؤوا من مدينة صور في لبنان حاليًّا. اشتهر الفينيقيون بالتجارة والترحال؛ مما جعل تجارة قرطاج تنشط، وأصبحت إفريقية (تونس) لمدة ستة قرون مقرًّا لحضارة رومانية إفريقية ذات ثراء استثنائي،[22] كانت إفريقية وهي تونس حاليًّا وكانت السلطة البيزنطية منحصرة في بعض المناطق، بينما كانت المناطق المغربية الأخرى غير موحدة سياسيًّا، تحكمها أحلاف قبلية بربرية متعدّدة.[23] واستمرت عملية بناء القيروان 4 سنوات، وفي هذه الأثناء كانت السرايا يُوَجّه لتوطيد الحكم الإسلامي ونشر الإسلام بين البربر، وكانت القيروان قاعدة الانتشار نحو بقية بلاد المغرب ونحو الأندلس. والعلوم والفكر بوفود القبائل العربية واستقرارها بتونس. واتخذ أبو زكريا مدينة تونس عاصمة له، ويبدأ تاريخ تونس الحديث.[24] منذ انضمام البلاد التونسية إلى الدولة العثمانية كان خلالها حاكم تونس يُعَيّن مباشرة من قبل السلطان العثماني.[25] فابن خلدون سنة 1332م. وامتاز ابن خلدون بفصاحته وسداد رأيه مما مكنه من ابتكار نظريّة ذات طابع عصري بخصوص التاريخ وعلم العمران البشري. ولئن كان يعتبر بحق مبدع علم الاجتماع، فقد كان في الواقع ممثلًا لحضارة بدت في عصره منحلة ولكنها كانت حضارة عالمية أثرت أيما تأثير في الفكر خصوصًا ابن سينا وابن رشد وفي والجبر والعلوم والطبية وعلم الفلك والكيمياء وفي فنون البشرية قاطبة. صنّف ابن الشباط أصيل الجريد التونسي، كتابًا مفصلًا فريدًا من نوعه تناول فيه توزيع المياه في الواحات، وضبط فيه عملية مدققة في كيفية الاستغلال المشترك لمياه

---

20 مصطفى الستيتي، "المجتمع التونسي قبل 100 عام بعيون مثقف مصري"، متاح على الموقع: https://www.turkpress.co/node/17546 التاريخ: 18-01-2016. الساعة: 20:20 .

21 تشمل الطقوس مختلف الأحداث الاستثنائية واليوميّة، وتجمع بين ثنائيّات عديدة. فهي جادّة وصارمة ورسميّة أحيانًا، وأحيانًا أخرى تبدو مقولبة وروتينيّة، وتتضمّن الطقوس والممارسات الاجتماعيّة المقترنة بها جملة من المعاني والرّموز الثقافيّة التي تستوجب تأويلها، لذلك فإنّ دور الباحث في الأنتروبولوجيا هو فك تلك الرّموز وفهم معانيها للكشف عن جوانب من الهوية الثقافيّة للمجتمع. فالطقوس إذن تعبر عن القيم والمعاني والمعتقدات السائدة في مجتمعات معيّنة. للمزيد انظر: عبد الكريم براهمي، الثابت والمتحوّل في طقوس الغذاء أثناء الضيافة في المجتمع التونسي مقاربة أنثروبولوجيّة عادات وتقاليد، مجلة الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث والنشر، دار أخبار الخليج للطباعة والنشر، البحرين، 2017، ع36. ص 60-65.

22 السرجاني راغب، قصة تونس، ط1، دار أقلام للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2011، ص ص07 ،09.

23 نفسه، ص10.

24 وإلى جانب هذا الازدهار المادي نشطت الحياة الثقافية وأنتجت أثارًا يمكن الاستدلال من خلالها على أن البلاد على أعقاب نهضة. فلنذكر على سبيل المثال إنجاز مؤلفين في التاريخ هما المشرع الملكي في سلطنة أولاد حسين بن علي تركي لصاحبه محمد بن محمد الصغير بن يوسف الباجي حوالي 1764م . 1769 م والكتاب الباشي» للأديب ورجل الدولة حمودة بن عبد العزيز حوالي 1778م ورغم عودة المجاعة والطاعون الجارف، فإن مع انطلاقة القرن الثامن عشر لم تكن تلك الأزمات سوي دليل على فائض ديمغرافي قد تجاوز مستوى الموارد المتوفرة في البلاد. ولعله لم يكن لوباء 1784 – 1785م، ولعودته بعد ذلك، من أثر يذكر سوى إعادة التوازن بين عدد السكان وحجم الموارد، وإلا فإنه يستحيل أن نفهم ما حققه حمودة باشا، ولم تكن تستطيع أن تركز سيطرتها على داخل البلاد بسبب مقاومة المجتمعات القبلية. ولذلك وجب عليها أن تضع نفسها تحت وصاية الدولة، وفي عصر عائلات القياد رجال الأعمال مثل آل الجلولي وابن عياد وكبار التجار العاملين بالاشتراك مع البايلك في سوق البحر الأبيض المتوسط مثل الحاج يونس بن يونس الجربي. وكان هذا الترابط بين السياسة والاقتصاد سيئاته أيضًا فإن هذه البورجوازية التابعة للسلطة معاقة عن التطور من جهة، ومعرضة لتقلبات السياسية من جهة أخرى وسيؤكد ذلك وبينه بكل بوضوح انقلاب الأوضاع سنة 1814 – 1815. للمزيد انظر: محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال تر، محمد الشاوش، محمد عجينة، ط3، ص92 ،93. دار سراس للنشر، تونس، 1993.

25 السرجاني راغب، مرجع سابق، ص،12-17.

الينابيع وتوزيعها بين الناس، وتألقت إفريقية في ميدان آخر، أولاها للإسلام والكتابة، إن جعلها ركنا من أركان العقيدة هي نفس العناية التي تلت في تونس، أرض الحضارة، في أكمل مظاهرها.[26] وأخبر الجغرافي سلاكس في رحلته التي قام بها في أطراف البحر المتوسط قبل الميلاد بقرنين بوجود شعب من شقر الشعور قاطن في الولاية التي تعرف اليوم بتونس، وتراهم الآن شراذم مبعثرة في إفريقية، وترى منهم أشخاصًا بين الطوارق في الصحراء. من صورة فوتوغرافية لأهل الحضر[27] من البربر بقُرَى تقوم في أعالي الجبال على العموم، ويختلف منظرها قليلًا عن منظر القرى الأوربية، والبربر صبر على العمل الشاق فلا يرتدون عنه، ويثيرون ما يملكون من الأراضي الضعيفة بجدّ ونشاط، ويكتفون بما يُمسك الرّمق لاحتياجاتهم القليلة، ما يحتاجون إليه من مختلف الأدوات والنسائج والأسلحة والحُلي ... إلخ، ولدراسة طبائع البربر المعروفين بالقبائل وعاداتهم التي ثبتت مع تعاقب الفاتحين أهمية خاصة. تشتمل كل قرية بربرية على أسر كثيرة مؤلفة من أناس منحدرين من أصل واحد، وتتألف القبيلة من اجتماع عدّة قرى، والقرية، لا القبيلة.[28]

ثانيا– الرحالة الجزائريين في وصف طقوس الحج والمجتمع:

1– أدب الرحال في وصف الحج والمجتمع:

- **رحلة العياشي:**

المسماة ب ماء الموائد والمعروفة بالرحلة العياشية، وهي رحلة حجازية. ويذهب المستشرق كراتشوفسكي إلى أن رحلة العياشي واحدة من الرحلات التي ألفت خلال هذا العهد ومن رحلات القرن 17م. كذلك نذكر رحلة أحمد المقري التلمساني، وهي رحلة غير مطبوعة مخطوطة تحمل عنوان "رحلة في المشرق والمغرب". إذا انتقلنا إلى القرن 18م 12هـ فنجد أن نشاط الرحلة سرعان ما أخذ في البروز أكثر، ومن رحلات القرن الثامن عشر الميلادي نذكر رحلة ابن عمار المعروفة بـ " نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب ".. في القسم الثاني – وهو مفقود – تحدث عن رحلته من الجزائر إلى الحجاز عبر

---

26 عبد العزيز الدولاتلي، إسهام تونس الحضارة العالمية تونس أعلام ومعالم، مؤلف جماعي الوكالة القومية للتراث الملعب الوطني للتراث، تونس، مارس 1997، ص17.

27 أمّا أخلاق أهل تونس فهي في مجموعها حسنة، فهم يُكرمون الغريب الوافد إليهم، وهذا ينفي ما هو شائع لدى العامة من بخل أهل المغرب، وقد يجوز وجود البخل في بعض بلاد المغرب الأقصى، ولكن غير أهل تونس. أمّا ما يُوجد في أخلاقهم من الحدة فمرجعه إلى الصلاح والتقوى؛ لأن المعروف في أهل الفضل والتقى والدين التسرع في الغيظ إذا رأوا أمرًا مخالفًا لآداب الدين. وهم سواسية في الوداعة وكرم الأخلاق وعدم الميل إلى الملاذ والملاهي، بخلاف غيرهم من أهل البلاد الإسلامية الذين اختلطوا بالأوروبيين وقلدوهم في مظاهر المدنية الغربية، وذلك لأنهم متمسكون بأوامر الدين ونواهيه، فلا يتظاهرون بالفجور والفسق ولا ينتهكون حرمات الدين، أما نساؤهم المسلمات فإنهن على جانب عظيم من العفة والصون. أمّا الخطب الدينية في مساجد ونس فهي لا تخرج عن الخطب في بعض مساجد مصر، إذ كلها ما هو مذكور في دواوين الخطب، ومسموع في كل جمعة، فليت حضرات الخطباء الأفاضل في تونس يُلقون الخطب العصرية الموافقة للحالة الحاضرة والصالح العام، ويقفون على الداء ويصفون الدّواء، كما كان يفعل السلف الصالح من تنكير المسلمين بالمفاسد في كل زمن وكل مكان. أما إذا جاء الليل فإنهم يعلقون نبراسا، وبعد الأذان ينزلون العلم. حالة التعليم في تونس لا توجد مدرسة إسلامية في تونس ليتلقى فيها المسلمون علوم الشرع الشريف، عدا جامع الزيتونة، وقد كنت أظنّ أنّ هذا الجامع كالأزهر في مصر من حيث كثرة الطلاب واتساع المكان، فلمّا قدمت إلى تونس وزرت هذا الجامع وجدته في اتساعه لا يزيد عن المسجد الحسيني، والمتعلمة فيه قليلون لا يزيدون عن خمسمائة طالب، والمدرسون فيه ستة عشر عالمًا، وهم مع قلتهم متفرقون في زوايا المسجد غير منتظمي الهيئة من جهة المطالعة. للمزيد انظر: علي أحمد الجرجاوي، الرحلة اليابانية: رحلة أزهري إلى اليابان للدعوة إلى الإسلام سلسلة تراث الأزهريين، ط1، كشيدة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص50.

28 غوستاف لوبون، أدل زعيتر، حضارة العرب قبل العرب، هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص، 256، 257 259.

تونس وطرابلس ومصر. ورحلة الورتلاني: واحدة من رحلات القرن الثامن عشر، والتي تحمل عنوان "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار برحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة بـ "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال وكانت لغرض العلم من جهة. والرحلة فيها أجزاء. وقوله: وفي يوم الخميس، ثالث وعشرين رمضان، موافق ثامن عشر أكتوبر في الجزء الأول من هذا التأليف وقد حوت الرحلة على معلومات جد مهمة لبلاد المغرب، والجزائر خاصة، في تلك المرحلة – العهد العثماني – والتي لا تزال تفتقر إلى معلومات، ولعل أهم ما سجله لنا الرحالة هو طباع وعادات كل من الجزائر والمغرب في ليلة القدر والمولد النبوي الشريف.. فمثلا في الجزائر نجده يشير إلى انعقاد الصلح بين الجزائر والدانمارك إذ يقول : وفي يوم الجمعة وقع الصلح بين الجزائر و الدانمارك .إن هذه الرحلة إذا كانت سجلًا لا يستغنى عنه لمعرفة طبيعة الحياة الجزائرية والمغربية بمختلف جوانبها السياسية والاجتماعية والثقافية. [29]والكافي أبو عمار بن أبي يعقوب يوسف بن إسماعيل بن محمد التناولي الوارجلاني فقيه إباضي ومؤرخ، اشتغل بعلم الفرائض، شهير وسليل أسرة علمية محافظة، عاش في القرن 6هـ . 12م، نشأ في ورجلان، ودرس على مشايخها الإباضيين علوم الشريعة واللغة حتى أجازوه، هاجر إلى تونس ليزداد توسعًا في العلوم النقلية والعقلية، ذكر الدرجيني الدوافع التي جعلته يذهب إلى تونس وتتلخص في أمرين: أحدهما الابتعاد عن شواغل الأمل والتفرغ للتحصيل، والآخر الانقطاع عن اللسان البربري السائد في بيته، والتدرب على اللسان العربي، وطالت إقامته بتونس عدة سنوات، وقد كفاه أهله مؤونة الحياة، فكانوا يبعثون إليه كل سنة ألف دينار، فعاش ميسورًا، وحصر كل همته وطاقته في ميدان التحصيل، ونال إعجاب مشايخه ورفاقه بفكره الثاقب وذكائه وكرمه وحسن خلقه، واستقر الكافي بعد عودته من تونس بورجلان، وبقي يدرس الطلبة ويجالس العلماء، ويناظرهم حتى وفاته، عرف بصحبته للعالم أبي يعقوب الورجلاني المتوفي سنة 570هـ 1175م، الذي رافقه في رحلته إلى الحج، وقد أرخ الورجلاني في هذه الرحلة في قصيدة شهيرة هي القصيدة الحجازية. من مؤلفاته: "كتاب سير المشايخ"، و"سير الحلقة" في التاريخ. [30]أيضًا رحلة الحاج الدين الأغواطي المسماة ": رحلة الأغواطي في شمالي إفريقية والسودان والدرعية والحاج ابن الدين الأغواطي لم يكتب له الرحلة بالتفصيل، وإنما أشار إلى الخطوط العريضة لكل منطقة سواء عن الجزائر أو عن شبه الجزيرة العربية. ولكن رغم هذا الاختصار، إلا أن الرحلة كانت بمنزلة وثيقة استفاد منها الأمريكيون، بل ومكنت الفرنسيين من السيطرة على مستعمراتها. [31]أما كتو محمد: محمد بن الشيخ أحمد بن محمد بن الحاج السعيد كتو من قرية "تيفريث نابث الحاج" بأزفون (القبائل الكبرى)، فقيه، مقرئ، ولد سنة 1333هـ الموافق 1915م بمدينة باجة، حفظ القرآن الكريم وعمره 11 سنة، وتعلم مبادئ العلوم الاسلامية، والمتون على يد والده، سافر إلى تونس

29 شرابي يسمينة، مرجع سابق، ص، 44، 45، 46.

30 رابح وخدوسي وآخرون، ص451.

31 شرابي يسمينة، مرجع سابق ، ص48 ، 49.

والتحق بجامع الزيتونة، وبالجزائر إجازة الشيخ بابا عمر في الصحيحين وموطأ الإمام مالك، رجع إلى الجزائر.[32] وأيضًا الورثلاني سيدي الحسين بن محمد (1779–1193): ولد بيني ورثان ولاية سطيف اليوم، وقد ترجم له أبو القاسم محمد الحفناوي في القسم الثاني من كتابه الموسوم "تعريف الخلف برجال السلف، أخذ العلم عن والده وشيوخ بلده، ثم رحل إلى المشرق، وله تآليف منها الرحلة المشهورة الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، وشرح على المنظومة القدسية للشيخ عبد الرحمن الأخضري، والرحلة أهم مؤلفاته وأشهرها، تنقل صورة دقيقة عن الحياة الاجتماعية والعلمية، والدينية لا سيما العقائد الصوفية وطرقها ومزاراتها، ولا سيما الأعلام والشيوخ الذين التقى بهم في بعض مناطق الجزائر كبسكرة، وطولقة، وتوقف عند مزار النبي سيدي خالد، وقسنطينة... وفي البلاد العربية مغربًا حتى طنجة، ومشرقًا حتى تونس، وطرابلس، ومصر وبلاد الحجاز لا سيما مكة والمدينة المنورة. وابن هطال الحاج أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد التلمساني: (1804/1219) كان كاتبًا و مستشارًا لمحمد باي وهران (حكم 1792 – 1799 إلا أن رحلته المسماة برحلة تعمد الكبير إلى الصحراء الجزائرية، هي التي سجلها، وقدم فيها وصفًا دقيقًا للمناطق التي كانت خارجة عن سلطة الباي محمد الكبير باي وهران، ولم تكن تدفع الضرائب، وقد وصف حوادث تلك الرحلة يومًا بعد يوم، مع ذكره للأماكن والجهات، والمسافات بينها بالساعات، ووصف الجبال والوديان، والمنازل.[33] وكل هذا أعطى صورة واضحة عن طبيعة الحكم السياسي في الجزائر في العهد العثماني، وعن الحياة الاجتماعية والاقتصادية لسكان الهضاب والصحراء لا سيما الرحل. كذلك رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي إلى الصحراء: لقد زار الجزيرة العربية في أثناء أدائه لفريضة الحج، غير أنه تحدث عنها بصفة مختصرة، لأن لب الرحلة يتكلم فيه عن أخبار الصحراء الجزائرية وما جاورها من القرى والمدن بواحاتها وعادات أهلها، كمدينة الأغواط وعين ماضي وتاقدامت، وجبل عمور، ومتليلي، وواد ميزاب، والقليعة (المنيعة وتقرت، وورقلة وتوات، وتيميمون، وعين صالح، وغدامس وشنقيط، وقابس والدرعية، وجزيرة جربة، وحسب هذه الاعتبارات فهذه الرحلة في غاية الأهمية.[34] أيضًا رحلة ابن عمار وتدعى نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب وصاحبها أبو عبد الله بن عمر الجزائري أبو العباس من أعلام زمانه في العلوم النقلية والعقلية والتاريخ والحديث، حج سنة 1166 هـ، وجاور الحرم حيث ألف رحلة الحجازية المشهورة والمسماة بنحلة الحبيب، ولكنها في حكم المفقودة، إذ لم يسلم من الضياع إلا مقدمتها الضخمة وفيها أورد ابن عمار أشعارًا عديدة وموشحات تصف شوقه إلى البقاع المقدسة كما ذكر بعض عادات أهل الجزائر وتقاليدهم.[35]

32 رابح وخدوسي وآخرون، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، ج 2، منشورات الحضارة، الجزائر، 2014، ص454.

33 إسماعيل سامعي، علم التاريخ دراسة في المناهج والمصادر، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، 2016، ص300، 301.

34 ص 32، 33.

35 شرابي يسمينة، مرجع سابق، ص34 – 48.

2-طقوس مجتمع الجزائر وخصائصه من نتائج دراسة الرحالة:

تبقى القبيلة قاعدة الهرم الاجتماعي الكبير لسكان الجزائر؛ ونظام الأرض هو أساسها. مع التأكيد على أن طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الجزائر غير متجانسة، لأن اختلاف الجنوب عن الشمال كان كبيرًا. ففي الساحل كانت حياة السكان تقوم على مردود الأرض. بينما تقوم حياة سكان الجنوب على الرعي، ومن ثم فالحياة الاقتصادية والاجتماعية للريف الجزائري كانت تقوم على نشاطين هما الزراعة وتربية المواشي. فمثلًا كانت أسرة ابن قانة تنافس أسرة كل من بوعكاز في الزيبان، وأسرة بني جلاب في توقرت، وقد كان لهذا الوضع الاجتماعي دوره في توجيه السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية. ومن الأسر ذات النفوذ على الحياة الاجتماعية في غرب وجنوب البلاد كانت أسرة أولاد سيدي الشيخ. وكذلك قبيلة الحنانشة التي كانت تشكل مركز الفعل في الحياة الاجتماعية في الشرق والجنوب الجزائري كان نفوذها يمتد على حدود البلدين تونس والجزائر.[36] فقد أحدث المشروع الاستعماري في الجزائر جروحًا عميقة في بناء المجتمع الجزائر، وحاولت طمس هوية الجزائر الوطنية، وتصفية الأسس المادية والمعنوية التي يقوم عليها هذا المجتمع، بضرب وحدته القبلية والأسرية، واتباع سياسة تبشرية تهدف إلى القضاء على دينه ومعتقده الإسلامي، وفقًا لفكرة: أن العرب لا يطيعون فرنسا إلا إذا أصبحوا فرنسيين، ولن يصبحوا فرنسيين إلا إذا أصبحوا مسيحيين، وكان التوجه الفرنسي يعتمد على معاداة العروبة والإسلام، فعملت على محو اللغة العربية، وطمس الثقافة العربية والإسلامية، وطمس الثقافة العربية والإسلامية، تدرج مع بداية القرن العشرين.[37] ينبغي الإشارة كمعلومة أولية لطبيعة المجتمع الجزائري[38]، أنه ظل ذا طابع ريفي، حيث إن تسعين في المائة من السكان (قبل 1830) كانوا ينتظمون في قبائل ويعيشون في الريف،[39] فالمجتمع العربي يحوي خليطًا من الأديان، فالإسلام من مقومات[40] المجتمع العربي، فهو بحكم الفعل الحضاري الذي ميّز العرب بين الشعوب الإنسانية، وبحكم الدور الوحدوي الذي استطاع أن يبلور النموذج الوحدوي العربي الأول، وبحكم الوجود الفعلي في واقع

36 عميراوي أحميدة، وآخرون، آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري (1830-1954)، طبعة خاصة، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر (د.ت.ن)، ص15، 16.

37 محاسيس، نجاة سليم محمود، معجم المعارك التاريخية، ط 1، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، 2011، ص173، 174.

38 فتنشئة الأجيال الطالعة وإعدادها للعيش والعمل في المجتمع عن طريق ثقافته الخاصة بالقيم والمبادئ والعادات واللغة والمهارات وتكوين شخصية الفرد والغالب في المجتمع العربي هو استمرارية، وفيما يتعلق بأنماط التنشئة التقليدية في العائلة العربية القائمة على الحماية والطاعة والامتثال والخوف من الأخطار وتجاوز الحدود المرسومة. للمزيد انظر: حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر بحث استطلاعي اجتماعي، ط6، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، نوفمبر 1998، ص 221.

39 تشالز باناتي، قصة العادات والتقاليد وأصل الأشياء، تر مروان مسلوب، سعاد مفتي، دار خيال للنشر والتوزيع، الجزائر، 2017، ص148.

40 يعد موسم الحج من أكبر المحافل الاجتماعية في مكة، فضلًا عن وظيفته الدينية، حيث يفد إليها أعداد كبيرة من العرب وغيرهم، لغرض أداء طقوس الحج وممارسة النشاط الاقتصادي من طريق التجارة والتكسب في أسواق مكة المرتبطة بموسم الحج، ولا شك أن الأعداد الكبيرة من الحجاج الذين يفدون إلى مكة ونجد أن أهل مكة كانوا يتضامنون في القيام بواجبهم تجاه الوافدين من خلال الترحيب والإكرام وتوفير الطعام والشراب لهم، فقد كانت دور سادات قريش مشرعة الأبواب أمام الضيوف. فضلًا عن قيامهم بعملية الرفادة والسقاية والحجابة، ولقد انطوى في تقاليد الحج تقليدان عظيمان يسبغان على الحج وموسمه الروعة والأمن، ويدلان مدى تأثيره في نفوس العرب وحياتهم الاجتماعية والدينية والاقتصادية تقليدًا من منطقة الكعبة التي هي منطقة مكة وتحريم القتال فيها في كل وقت مهما كانت الأسباب، وتقليد الأشهر الحرم بحيث يكون القتال وسفك الدماء محظورين فيها، ووردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى الحج وتقاليده وشعائره. للمزيد انظر: صلاح السوداني، الحياة الاجتماعية في الحجاز قبل الاسلام، مركز الكتاب الأكاديمي، ص312.

المجتمعات العربية المعاصرة، يعتبر الإسلام المقوم الأساسي من بين المقومات العديدة التي يستند إليها وجود هذا المجتمع. ومنها العادات والتقاليد والأخلاق، وبما أننا نتكلم عن مقومات مجتمع، فإن العادات والتقاليد والأخلاق تعد من أهم المحركات.[41]

الخاتمة ونتائج الدراسة:

من خلال دراستنا لما سبق من المعطيات المقدمة توصلنا إلى النتائج الآتية:

- عدد الباحثون والمؤرخون، في دراساتهم الاستدلالية، التراث المادة الحيوية التي يُستند عيلها لمعرفة تفاصيل حياة سابقة لحضارات سالفة وشعوب سابقة، والتي أعطت مدلولها بإسقاط الدراسة على بلدي الجزائر وتونس.
- كان اجتهاد الطموحين من الرحالة أمثال ابن بطوطة وابن جبير في إقامة رحلات استطلاعية بغرض علمي وكذلك دينية مثل الرحلات لبلاد الحجاز لأداء فريضة الحج وباعتبار الجزائر وتونس دولتين أو بلدين تجمعهما الحدود المشتركة والعروبة والإسلام، فقد تعددت الرحلات من وإلى هذين البلدين.
- استدل على الحياة الاجتماعية في الجزائر وتونس، وذكرت الخصائص المشتركة لا سيما في الموروث الثقافي للمجتمعات، وكذلك أداء المناسك الدينية في الحج والزيارة، والأذكار المتوارثة من خلال ما جُمّع في كتابات هؤلاء الرحالة وما وصف من خلال المناظرات والمؤلفات التي أنجزت في أدبيات الرحالة المشارقة والمغاربة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. حسين ابراهيم محمد مصطفى الجبراني، العلوم الشرعية واللغوية، ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، 2017.
2. شرابي يسمينة، الموروث الثقافي في أدب الرحلة الجزائري "نماذج من رحلات القرن العشرين"، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في اللغة، والأدب العربي جامعة البويرة، الجزائر، 2013.
3. أسامة السيد محمود وآخرون، الاتجاهات الحديثة في المكتبات والمعلومات ع35، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، جويلية 2018.
4. عماد الدين خليل، من أدب الرحلات، دار ابن كثير، دمشق، 2005.
5. إسماعيل سامعي، علم التاريخ دراسة في المناهج والمصادر، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، 2016.
6. زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، 2008.
7. أبو بكر الخطيب البغدادي، الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي، تح، نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1975.

41 حسن عبد الرازق منور، المجتمع العربي بين التاريخ والواقع، ط 2، أمواج للنشر والتوزيع، عمان، 2013، ص332.

8. حفناوي بعلي، الرحلات الحجازية المغاربية المغاربة الأعلام في البلد الحرام دراسة نقدية توثيقية ثقافية، دار اليازوري، عمان، 2018.
9. نوال عبد الرحمان الشوايكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، 2008.
10. الحبيب تامر، هذه تونس، مطبعة الرسالة مكتبة المغرب العربي، تونس، (د. ت ن).
11. جمال عبد الهادي محمود، المجتمع الاسلامي المعاصر بإفريقيا، القاهرة،1995.
12. السرجاني راغب، قصة تونس، ط1، دار أقلام للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2011.
13. محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تر، محمد الشاوش، محمد عجينة، ط3، دار سراس للنشر، تونس، 1993.
14. عبد العزيز الدولاتلي، إسهام تونس في الحضارة العالمية تونس أعلام ومعالم، مؤلف جماعي، الوكالة القومية للتراث الملعب الوطني للتراث، تونس، 1997.
15. علي أحمد الجرجاوي، الرحلة اليابانية رحلة أزهري إلى اليابان للدعوة إلى الإسلام سلسلة تراث الأزهريين، كشيدة للنشر والتوزيع، القاهرة.
16. غوستاف لوبون، أدل زعيتر، حضارة العرب قبل العرب، هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012.
17. رابح وخدوسي وآخرون، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، ج2، منشورات الحضارة، الجزائر، 2014.
18. إسماعيل سامعي، علم التاريخ دراسة في المناهج والمصادر، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، 2016.
19. عميراوي أحميدة، وآخرون، آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري (1830-1954)، طبعة خاصة، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر (د. ت.ن).
20. محاسيس نجاة، سليم محمود، معجم المعارك التاريخية، ط 1، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، 2011.
21. حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر بحث استطلاعي اجتماعي، ط6، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، نوفمبر 1998.
22. تشالز باناتي، قصة العادات والتقاليد وأصل الأشياء، تر. مروان مسلوب، سعاد مفتي، دار خيال للنشر والتوزيع، الجزائر، 2017.
23. صلاح السوداني، الحياة الاجتماعية في الحجاز قبل الاسلام، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، 2015.
24. حسن عبد الرازق منور، المجتمع العربي بين التاريخ والواقع، ط2، أمواج للنشر والتوزيع، عمان، 2013.
25. عبد الكريم براهمي، الثابت والمتحوّل في طقوس الغذاء أثناء الضيافة في المجتمع التونسي مقاربة أنثروبولوجيّة عادات وتقاليد، مجلة الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث والنشر، دار أخيار الخليج للطباعة والنشر، البحرين، 2017، ع36.
26. "عادات وتقاليد اجتماعية وإنسانية تشكل الكيان الحضاري والثقافي للشعب التونسي"، مقال من جريدة الوطن متاحة الكترونيا على الرابط: https://alwatan.om/details/191512 الساعة: 12:30، التاريخ 2020/04/14.
27. مصطفى الستيتي، "المجتمع التونسي قبل 100 عام بعيون مثقف مصري"، متاح على الموقع: https://www.turkpress.co/node/17546 التاريخ: 2016-01-18، الساعة: 20:20.